٢ ـ وَالِعَـة امرأة نوح عليه السلام

كان «نوح» عليه السلام ثمرة زواج «لامك بن مَتُّوشَلَخَ بن أخنوخ» من امرأة تدعى «بتنوس ابْنَة براكيل بن محويل بن خنوخ بن قين بن آدم» عليه السلام. ولما بلغ «نوح» من العمر خمسمائة سنة نكح «عمذرة ابْنَة براكيل بن محويل بن خنوخ بن قين بن آدم» فولدت له بنيه: «سام» و«حام» و«يافِث»[١].

وقد أخرج ابن جرير الطبري في تاريخه: حدثنا الحارث قال: حدثنا ابن سعد، قال: حدثني هشام، قال: أخبرني أبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، قال: وَلَد «مَتُّوشلَخ» لامك ونفراً معه، وإليه الوصية، فَوَلَد «لامك» «نوحاً»، وكان لِلامك يوم ولد «نوح» اثنتان وثمانون سنة، ولم يكن أحد في ذلك الزمان ينهى عن منكر، فبعث الله إليهم «نوحاً»، وهو ابن أربعمائة سنة وثمانين سنة، ثم دعاهم في نبوته مائة وعشرين سنة، ثم أمره بصنع السفينة، فصنعها وركبها وهو ابن ستمائة سنة، وغرق من غرق، ثم مكث بعد السفينة ثلاثمائة سنة وخمسين سنة[٢].

ولما أجمع قوم «نوح» عليه السلام على ركوب الفواحش، وشرب الخمور، والاشتغال بالملاهي عن طاعة الله تعالى، أرسل الله إليهم نبيَّه «نوحاً» عليه السلام ليخرجهم من ظلمات الضلالة والغواية إلى أنوار التوحيد والهداية، ويحثهم على عبادة الله وحده، ولكن كان في آذان القومَ وقْر عَمَّا دعاهم «نوح» عليه السلام إليه، وعلى أعينهم غشاوة، وفي قلوبهم عَمًى، فَأنَّى يهتدون؟ وكيف يجيبون داعي الله وهم في غفلتهم وغيهم سادرون؟ ولقد لقي «نوح» عليه السلام من قومه العنت الشديد، والسخرية المريرة، والآلام الكثيرة، حتى أنهم لم يتورعوا عن ضربه وإلحاق أشد الأذى به، وإدخال الأسى إلى قلبه.

---

(١) يافِث: بكسر الفاء كصاحِب.

(٢) تاريخ الطبري (١/ ١٧٤).

وقد ذكر ابن كثير في البداية والنهاية قصة «نوح» عليه السلام فقال: واختلفوا في مقدار سنه يوم بُعِثَ، فقيل: كان ابن خمسين سنة، وقيل: ابن ثلاثمائة وخمسين سنة، وقيل: ابن أربعمائة وثمانين سنة، حكاها ابن جرير، وعزا الثالثة منها إلى ابن عباس.

وقد ذكر الله قصته، وما كان من قومه، وما أنزل بمن كفر به من العذاب بالطوفان، وكيف أنجاه وأصحاب السفينة في غير ما موضع من كتابه العزيز، ففي الأعراف، ويونس، وهود، والأنبياء، والمؤمنين، والشعراء، والعنكبوت، والصافات، واقتربت، وأنزل فيه سورة كاملة[1].

ولعل تكرار الإشارة في هذه السور كلها إلى قصة «نوح» عليه السلام مع قومه إن دَلَّ على شيء، فإنما يَدُلُّ على أهمية دعوة هذا النبي الكريم وشدة ما لقي من جحود قومه وبغيهم عليه، والإساءة إليه، ورفضهم للخير الذي جاءهم به، وغُلُوِّهم في الكفر والفسوق والعصيان، وإنكارهم لفاطر الأكوان، وآلائه التي يعجز عن حصرها أهل الحساب والبيان.

ولئن سبَّب رفض دعوة «نوح» عليه السلام له الكثير من الآلام، من قبل قومه، فإن ألمه الأعظم، وحزنه الأكبر نجم عن معارضة امرأته وولده له، وتكذيبهما لدعوته، وانحيازهما للمكذبين، ووقوفهما في صف المعادين، متجاهلين أن أولى الناس بتصديق المرء هم أهله وذوو قرابته، ولا سيما حين يدعوهم إلى الحق، ويرجو لهم الخير العميم، ولكن ما يملك لهم «نوح» عليه السلام إذا كان الله قد كتب لهما الشقاء، وجعلهما في عداد الأعداء؟

قال تعالى في تنزيله العزيز: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟

(١) البداية والنهاية (١/١١٣، ١١٤).

ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [نوح، الآيات: ١-٢٨] .

جاء في روح المعاني للعلامة الآلوسي عند تفسيره لهذه السورة ما رواه الحاكم عن ابن عباس مرفوعاً، قال: إن الله تعالى يدعو «نوحاً» وقومه يوم القيامة أول الناس، فيقول: ماذا أجبتم «نوحاً»؟ فيقولون: ما دعانا، وما بلَّغنا، ولا نصحنا، ولا أمرنا، ولا نهانا، فيقول: «نوح» عليه السلام: دعوتهم يا رب دعاء فاشياً في الأولين والآخرين، أمة بعد أمة، حتى انتهى إلى خاتم النبيين «أحمد» ﷺ، فانتسخه، وقرأه، وآمن به، وصدقه، فيقول الله ﷻ للملائكة عليهم السلام: ادعوا «أحمد» وأمته، فيدعونهم، فيأتي رسول الله ﷺ وأمته، يسعى نورهم بين أيديهم، فيقول «نوح» عليه السلام لمحمد ﷺ وأمته: هل تعلمون أني بلغت قومي الرسالة، واجتهدت لهم بالنصيحة، وجهدت أن أستنقذهم من النار سراً وجهاراً، فلم يزدهم دعائي إلا فراراً؟ فيقول رسول الله ﷺ وأمته: فإنا نشهد بما أنشدتنا أنك في جميع ما قلت من الصادقين، فيقول «نوح» عليه السلام: وأنَّى علمت هذا أنت وأمتك، ونحن أول الأمم، وأنت آخر الأمم؟ فيقول رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمٰن الرحيم، إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه، حتى يختم السورة، فإذا ختمها قالت أمته: نشهد إن هذا لهو القصص الحق، وما من إله إلَّا الله، وإن الله لهو العزيز الحكيم، فيقول الله ﷻ عند ذلك: امتازوا اليوم أيها المجرمون.

ثم يبدأ «الآلوسي» رحمه الله بتفسير السورة فيقول: بسم الله الرحمٰن الرحيم: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ [نُوح، الآية: ١] هو اسم أعجمي، زاد «الجواليقي» معرب، و«الكرماني» معناه بالسريانية: الساكن، وصُرِفَ لعدم زيادته على الثلاثة مع سكون وسطه، وليس بعربي أصلاً، وقول الحاكم في المستدرك: إنما سمي «نوحاً» لكثرة نوحه وبكائه على نفسه، واسمه «عبد الغفار» لا أظنه يصح، وكذا ما ينقل في سبب بكائه من أنه عليه السلام رأى كلباً أجرب قذراً فبصق عليه، فأنطقه الله تعالى، فقال: أتعيبني أم تعيب خالقي؟ فندم وناح لذلك، والمشهور أنه عليه السلام ابن لَمْك بفتح اللام وسكون الميم بعدها كاف ابن مَتُّوشَلَخ بفتح الميم وتشديد المثناة المضمومة بعدها واو ساكنة وفتح الشين المعجمة واللام والخاء المعجمة ابن خَنُوخ بفتح الخاء المعجمة وضم النون الخفيفة وبعدها واو ساكنة ثم خاء معجمة، وشاع أخنوخ بهمزة أوله، وهو «إدريس» عليه السلام ابن يَرْد بمثناة من تحت مفتوحة، ثم راء ساكنة مهملة، ابن مهلاييل بن قينان بن أنوش بالنون والشين المعجمة ابن شيت بن آدم عليه السلام وهذا يدل على أنه عليه السلام بعد «إدريس» عليه السلام.

وفي المستدرك أن أكثر الصحابة رضي الله عنهم على أنه قبل «إدريس» وفيه عن ابن عباس: كان بين «آدم» و«نوح» عليهما السلام عشرة قرون، وفيه أيضاً مرفوعاً: بعث الله تعالى «نوحاً» لأربعين سنة فلبث في قومه ألف سنة، إلَّا خمسين عاماً يدعوهم، وعاش بعد الطوفان ستين سنة، حتى كثر الناس وفَشَوْا.

وذكر ابن جرير أن مولده كان بعد وفاة «آدم» عليه السلام بمائة وستة وعشرين عاماً، وفي التهذيب للنووي رحمه الله أنه أطول الأنبياء عليهم السلام عمراً، وقيل: إنه أطول الناس مطلقاً عمراً، فقد عاش على ما قال «شداد»: ألفاً وأربعمائة وثمانين سنة، ولم يسمع عن أحد أنه عاش كذلك، يعني بالاتفاق، لئلا يرد «الخضر» عليه السلام، وقد يجاب بغير ذلك، وهو على ما قيل: أول من شرعت له الشرائع، وسُنَّت له السنن، وأول رسول أَنْذَرَ على الشرك وأهلكت أمته، والحق أن «آدم» عليه السلام كان رسولاً قبله، أرسل إلى زوجته «حَوَّاء»، ثم إلى بنيه، وكان في شريعته ما نسخ بشريعة «نوح» في قول، وفي آخر: لم يكن في شريعته إلا الدعوة إلى الإيمان، ويقال لنوح عليه السلام: شيخ المرسلين، وآدم الثاني، وكان دقيق الوجه، في رأسه طول، عظيم العينين، غليظ العضدين، كثير لحم الفخذين، ضخم السُّرَّة، طويل اللحية والقامة، جسيماً.

واختلف في مكان قبره، فقيل: بمسجد الكوفة، وقيل: بالجبل الأحمر، وقيل: بذيل جبل لبنان بمدينة الكرك، وفي إسناد الفعل إلى ضمير العظمة مع تأكيد الجملة ما لا يخفى من الاعتناء بأمر إرساله عليه السلام ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [نوح، الآية: ١] قيل: هم سكان جزيرة العرب ومن قَرُبَ منهم، لا أهل الأرض كافة، لاختصاص نبينا ﷺ بعموم البعثة من بين المرسلين عليهم السلام، وما كان لنوح بعد قصة الغرق على القول بعمومه أمر اتفاقي، واشتهر أنه عليه السلام كان يسكن أرض الكوفة، وهناك أُرْسِل، ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ [نوح، الآية: ١] أي: أنذر قومك على أن تفسيرية لما في الإرسال من معنى القول دون حروفه، فلا محل للجملة من الإعراب، ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح، الآية: ١] عاجل، وهو ما حَلَّ بهم من الطوفان، كما قال الكلبي، أو آجل، وهو عذاب النار، كما قال ابن عباس، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ [نوح، الآية: ٢] منذر موضِّح لحقيقة الأمر ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ [نوح، الآيتان: ٣،٤] على معنى أنه سبحانه يبتدئهم بعد إيمانهم بمغفرة ذنوبهم إحساناً منه ﷻ وتفضلاً، ويجوز أن يكون من جانبهم على معنى أول ما يحصل لهم بسبب إيمانهم مغفرة ذنوبهم، وليس بذاك.

ولما يئس «نوح» عليه السلام من إجابتهم دعوته إلى الإيمان والطاعة ليلاً ونهاراً من غير فتور ولا توان، ولم يلق لديهم أذناً صاغية، ناجى ربه، وشكى له أن قومه كلما دعاهم إلى الإيمان بالله تعالى ليغفر لهم ذنوبهم جعلوا أصابعهم في آذانهم وسدوا مسامعهم عن استماع الدعوة وبالغوا في التغطي بثيابهم لئلا يروا «نوحاً» كراهة النظر إليه من فرط كراهة ما يدعوهم إليه، وأصروا على استكبارهم وإعراضهم. ثم إن «نوحاً» عليه السلام دعا قومه إلى النظر في آيات الله التي تملأ الآفاق، ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧﴾ [نوح، الآيات: ١٥-١٧] أي: أنشأكم وأوجدكم ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ [نوح، الآية: ١٨] أي: بالدفن عند قومكم ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح، الآية: ١٨] أي: يوم البعث والحشر، ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠﴾ [نوح، الآيتان: ١٩،٢٠] لقد مدّ لكم الأرض كالبساط، وجعل لكم فيها طرقاً واسعة لتسلكوا فيها كما تشاؤون، لكن كل ما

قاله «نوح» عليه السلام لم يُغْنِ شيئاً، فلجأ إلى ربه ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ [نوح، الآيتان: ٢١، ٢٢] واستمروا على اتباع رؤسائهم من الضُّلَّال ممن أبطرتهم أموالهم، وغرتهم أولادهم، فزادهم ذلك خساراً في آخرتهم، وبلغوا في مكرهم أقصى غاية ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح، الآية: ٢٣] إنها الآلهة التي كان قوم «نوح» عليه السلام يعبدونها من دون الله تعالى شأنه، التي أضلت الكثيرين واستحقوا بعبادتهم لها دخول النار، ولم يجدوا لهم من دون الله من ينصرهم ويشد أزرهم، ولما بلغ اليأس من «نوح» مداه، لم يجد بداً من الدعاء على قومه ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح، الآيات: ٢٦-٢٨]، ودعا «نوح» عليه السلام ربه أن يهلك الكفرة والظالمين، وأن يغفر للمؤمنات والمؤمنين، إلى يوم الدين. وقد خصت تلك الأصنام الخمسة بالذكر لأنها كانت أكبر أصنامهم ومعبوداتهم الباطلة، التي عبدوها من دون الله، وقد انتقلت هذه الأصنام إلى العرب(١).

وقد أخرج البخاري وابن المنذر وابن مردويه، عن ابن عباس، قال: صارت الأوثان التي كانت في قوم «نوح» عليه السلام في العرب بعد، أما «وَدٌّ» فكانت لكلب بُدومة الجَنْدل، وأما «سُوَاع» فكانت لهذيل، وأما «يَغُوث» فكانت لمراد، ثم لبني غطيف عند سبإ، وأما «يَعُوق» فكانت لهمدان، وأما «نَسْرٌ» فكانت لحمير، لآل ذي الكلاع، وكانت هذه الأسماء أسماء رجال صالحين من قوم «نوح»، فلما هلكوا أوحى الشيطان إليهم أن انصبوا في مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ودرس العلم عبدت.

وأخرج أبو الشيخ في العظمة، عن محمد بن كعب القرظي أنه قال: كان لآدم عليه السلام خمسة بنين «ود» و«سواع» إلخ... فكانوا عُبَّاداً، فمات رجل منهم، فحزنوا عليه حزناً شديداً، فجاءهم الشيطان فقال: حزنتم على صاحبكم هذا؟

(١) روح المعاني (٢٩/٦٧، ٨١) بتصرف بسيط.

قالوا: نعم، قال: هل لكم أن أصور لكم مثله في قبلتكم إذا نظرتم إليه ذكرتموه؟ قالوا: نكره أن تجعل لنا في قبلتنا شيئاً نصلي عليه، قال: فأجعله في مؤخر المسجد، قالوا: نعم، فصوَّره لهم، حتى مات خمستهم فصوَّر صورهم في مؤخر المسجد، فنقصت الأشياء حتى تركوا عبادة الله تعالى، وعبدوا هؤلاء، فبعث الله تعالى «نوحاً» عليه السلام، فدعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده، وترك عبادتها، فقالوا ما قالوا.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن عروة بن الزبير أن «ودًّا» كان أكثرهم وأبرَّهُم، وكانوا كلهم أبناء «آدم» عليه السلام وروي أن «ودًّا» أول معبود من دون الله تعالى.

أخرج عبد بن حميد، عن أبي مطهر، قال: ذكروا عند أبي جعفر رضي الله عنه «يزيد بن المهلب» فقال: أما إنه قُتِلَ في أول أرض عبد فيها غير الله تعالى، ثم ذكر «وَدًّا» وقال: كان رجلاً مسلماً، وكان محبَّباً في قومه، فلما مات عكروا حول قبره في أرض بابل، وجزعوا عليه، فلما رأى «إبليس» جزعهم تشبه في صورة إنسان، ثم قال: أرى جزعكم على هذا فهل لكم أن أصور لكم مثله، فيكون في ناديكم، فتذكرونه به؟ قالوا: نعم، فصَوَّر لهم مثله، ووضعوه في ناديهم فجعلوا يذكرونه به، فلما رأى ما بهم من ذكره، قال: هل لكم أن أجعل لكم في منزل كل رجل منكم تمثالاً مثله، فيكون في بيته فيذكر به؟ فقالوا: نعم، ففعل، فأقبلوا يذكرونه به، وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون ما يصنعون به، وتناسلوا ودرس أمر ذكرهم إياه، حتى اتخذوه إلٰهاً يعبدونه من دون الله تعالى، فكان أولُ من عبد غير الله تعالى في الأرض ودًّا.

وأخرج ابن المنذر وغيره، عن أبي عثمان النهدي أنه قال رأيت يغوث وكان من رصاص يحمل على جمل أجرد ويسيرون معه لا يهيجونه حتى يكون هو الذي يبرك فإذا برك نزلوا وقالوا: قد رضي لكم المنزل، فينزلون حوله، ويضربون عليه بناء[1].

وأصَرَّ قوم «نوح» عليه السلام على كفرهم، ونبذهم لدعوته قال لهم «نوح» عليه السلام

(١) تفسير الآلوسي (٢٩/ ٧٧).

﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يونس، الآيات: ٧١-٧٣] . واحتجَّ قوم «نوح» عليه السلام المعارضون لدعوته والكافرون بما جاءهم به، أنهم لم يستجيبوا له لأنه ليس إلا بشراً مثلهم ولا يمتاز عنهم بشيء، وأن من اتبعوه ليسوا من علية قومه وأشرافهم وإنما هم بعض السفهاء والأراذل، وليس بوسع الأشراف أن يتبعوا ما اتبعه الأراذل، وأن يكونوا نظراء لهم في الملة التي ارتضوها.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ۖ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود، الآيات: ٢٥-٢٧] .

لقد بيَّن لهم «نوح» عليه السلام أنه إنما جاء لينقذهم من وهدة الكفر التي سقطوا فيها ويجنبهم عذاب الله الأليم، وسخطه العظيم، والمصير الوخيم، الذي ينتظرهم إن لم يهجروا ما هم عليه من الكفر والضلال، فماذا كان جواب قومه على دعوته الخَيِّرة؟.

إنه رد المتكبرين المعاندين المصرين على ضلالهم المبين، قالوا له ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود، الآية: ٢٧] ليس فيك مزية تفضلك علينا وتخصك بالنبوة من دوننا، ولو كانت لك تلك المزية لما خفيت علينا، ثم إننا قد وجدنا أن الذين اتبعوك ليس فيهم أحد من الأشراف ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ۖ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود، الآية: ٢٧] . وكانت تهمة الكذب سائدة في تلك العصور، فكلما جاء رسول يدعو قومه إلى عبادة الله وحده نسبوا إليه الكذب، واتهموه بالتنكر لدين آبائهم، وقاوموه بكل الوسائل المتاحة، وربما تخلصوا منه بإخراجه من بين أظهرهم، أو بقتله.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [هُود، الآية: ٢٨] ، إن كانت لي حجة قوية تشهد بصحة ما دعوتكم إليه، وقد خفيت عليكم، ونَبَتْ عنها أفهامكم فكيف أُلْزِمكم بالاهتداء إليها، وأنتم لها كارهون مبغضون أن تختاروها وتتأملوا فيها، ثم إنني لا أطالبكم بأجر لقاء ما أدعوكم إليه من الهداية لأن أجري محتسب عند الله تعالى، كما أنني لا يسعني طرد من تبعني من المؤمنين الفقراء لأن حسابهم وأجرهم على الله لا عليَّ، فكيف تسألونني أن أطردهم، وهم سيخاصمون طاردهم عنده وعندئذ أنال نصيبي من العقاب، إذا طردتهم إرضاء لكم ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [هُود، الآية: ٢٩] ، إنكم تجهلون منزلتهم عند الله تعالى وتجهلون عاقبة طردي لهم، ويشهد على شدة جهلكم أن تقفوا إيمانكم على طردي لهم لأنكم لا تطيقون أن تنتظموا معهم في سلك واحد، وتجهلون ما سينزل بي من سخط الله وعقابه لو أعطيتكم ما تسألون ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [هُود، الآية: ٣٠] ، فهل أنتم مانعون عني سخط الله ودافعون عني عقابه لو نفذت رغبتكم بطردهم؟ وهذا استفهام إنكاري لأن منع سخط الله ودفع عقابه ليس في مقدورهم ومستحيل عليهم، ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [هُود، الآية: ٣١] إنكم تقولون: ما نراك إلا بشراً مثلنا، وأنا لم أقل لكم إني ملك لأنني بشر حقاً، وهؤلاء الذين استرذلتموهم واستحضرتموهم وأنفتم من النظر إليهم بسبب فقرهم لا أقول لهم لن يؤتيهم الله خيراً في الدنيا والآخرة، لأن أمر ذلك إليه سبحانه وتعالى وبحسب ما يلقونه به يوم القيامة، ولأن ذلك من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا هو جَلَّ في عُلاَه.

﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [هُود، الآيات: ٣٢-٣٥]،

كان «نوح» عليه السلام حَذَّرهم من سخط الله وعذابه، إذا لم يؤمنوا بما جاءهم به، فتجرأوا عليه وتحدَّوه لينزل بهم وعيده، فسارع إلى إخبارهم أن ذلك ليس إليَّ ولا يدخل تحت طاقتي، وإنما هو لله تعالى الذي كفرتم به وعصيتم أمره، وسيأتيكم عقابه عاجلاً أو آجلاً وَفْق مشيئته وحده، وهو ليس عاجزاً بدفع العذاب أو الهرب منه، وإذا كان صاحب المشيئة قد قضى بضلالكم وغَوايتكم، فلا فائدة لكم عندي، ولن يغنيكم نصحي وإرشادي شيئاً.

قال «الآلوسي» رحمه الله: وفي الآية دليل على أن إرادة الله تعالى مِمَّا يصح تعلقها بالإغواء، وأن خلافَ مراده سبحانه محال، وإلا لم تصدق الشرطية الدالة على لزوم الجواب للشرط، والمعتزلة وقعوا في حَيْصَ بَيْصَ منها واختلفوا في تأويلها، فقيل: إنَّ (يغويكم) بمعنى يهلككم، من غَوِيَ الفصيل إذا بَشِمَ من كثرة شرب اللبن فهلك، وقد روى مجيء الغوي ـ بمعنى الهلاك ـ «الضَرَّاء» وغيره، وأنكره «مكي».

وقيل: إن الإغواء مجاز عن عقوبته، أي إن كان الله يريد عقوبة إغوائكم الخلق، وإضلالكم إياهم.

وقيل: إن قوم «نوح» عليه السلام كانوا يعتقدون أن الله تعالى أراد إغواءهم، فأخرج عليه السلام ذلك مُخْرَجَ التعجب والإنكار، أي: إن نصحي لا ينفعكم إن كان الأمر كما تزعمون.

وقيل: سمى ترك إلجائهم وتخليتهم وشأنهم إغواء مجازاً.

وقيل: إن نافية، أي: ما كان الله يريد أن يغويكم، ونفي ذلك دليل على نفي الإغواء، ويكون ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ﴾ [هُود، الآية: ٣٤] إلخ... إخباراً منه عليه السلام لهم، وتعزية لنفسه عنهم، لما رأى من إصرارهم وتماديهم على الكفر، ولا يخفى ما في ذلك من مخالفة الظاهر المعروف في الاستعمال، وارتكاب ما لا ينبغي ارتكاب مثله في ظلام المَلِكِ المُتَعَال. وبالجملة الآية ظاهرة جداً فيما ذهب إليه أهل السنة، والله سبحانه الموفق[1]. ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هُود، الآية: ٣٤]

(١) تفسير الآلوسي (١٢/٤٧).

إنه خالقكم ومالك أمركم ومجازيكم على أفعالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [هُود، الآية: ٣٥] قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني «نوحاً» عليه السلام أي: بل أيقول قوم «نوح» عليه السلام: إن «نوحاً» افترى ما جاء به مسنداً إلى الله عز وجل، قل يا «نوح»!: إن افتريته بالغرض البحت، فعليَّ إجرامي، أي: وَبَالُه، فهو على تقدير مضاف، أو على التجوز بالسبب عن المسبب، وفسر الإجرام بكسب الذنب، وهو مصدر أجرم، وجاء على قلة جرم، ومن ذلك قوله:

طريد عشيرة ورهين ذنب ... بما جرمت يدي وجنى لساني

وقرىء أجرامي بفتح الهمزة، على أنه كما قال: «النحاس»: جمع جرم، واستشكل «العز بن عبد السلام» الشرطية بأن الافتراء المفروض هنا ماضٍ، والشرط يخلص للاستشكال بإجماع أئمة العربية، وأجاب بأن المراد ـ كما قال ابن السراج ـ : إن ثبت أني افتريته فعليَّ إجرامي على ما قيل في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ [المائدة، الآية: ١١٦] ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هُود، الآية: ٣٥] أي: من إجرامكم في إسناد الافتراء إليَّ.

قيل: والأصل إن افتريته فعليَّ عقوبة افترائي، ولكنه فرض محال، وأنا بريء من افترائكم. أي: نسبتكم إياي إلى الافتراء، وعدل عنه إدماجاً لكونهم مجرمين، وأن المسألة معكوسة.

وما يقتضيه كلام ابن عباس أن الآية تتمة قصة «نوح» عليه السلام وفي شأنه، هو الظاهر، وعليه الجمهور.

وعن مقاتل أنها في شأن النبي ﷺ، مع مشركي مكة، أي: بل أيقول مشركو مكة: افترى رسول الله ﷺ خبر «نوح».

قيل: وكأنه إنما جيء به في تضاعيف القصة عند سوق طرف منها تحقيقاً لحقيقتها، وتأيداً لوقوعها، وتشويقاً للسامعين إلى استماعها، لا سيَّما وقد قص منها طائفة متعلقة بما جرى بينه عليه السلام وبين قومه من المحاجَّة، وبقيت طائفة مستقلة متعلقة بعذابهم، ولا يخفى أن القول بذلك بعيد وإن وُجِّه بما وُجِّه.

وقال في الكشف: إن كونها في شأن النبي ﷺ أظهر وأنسب من كونها من تتمة قصة «نوح» عليه السلام لأن ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [هود، الآية: ٣٥] كالتكرير لقوله سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [يُونس، الآية: ٣٨] دلالة على كمال العناد، وأن مثله بعد الإتيان بالقصة على هذا الأسلوب المعجز مما لا ينبغي أن ينسب إلى افتراء، فجاء زيادة إنكار على إنكار، كأنه قيل: بل أمع هذا البيان أيضاً يقولون: (افتراه)؟ وهو نظير اعتراض قوله سبحانه في سورة العنكبوت: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ [العَنكبوت، الآية: ١٨] بين قصة «إبراهيم» عليه السلام في أحد الوجهين، انتهى، ولا أراه معوَّلاً عليه[1]. ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [هُود، الآيتان: ٣٦-٣٧] فقنط عليه السلام من إيمانهم وأخبره الله تعالى أنه لم يبق فيهم من يتوقع إيمانه.

أخرج إسحاق بن بشر، وابن عساكر، عن ابن عباس، قال: إن «نوحاً» عليه السلام كان يضرب، ثم يلف في لبد فيلقى في بيته يرون أنه قد مات، ثم يخرج فيدعوهم، واتفق أن جاءه رجل ومعه ابنه، وهو يتوكأ على عصاً، فقال: يا بني! انظر هذا الشيخ لاَ يغُرَّنَّك، قال: يا أبتِ! أمكني من العصا، فأخذ العصا، ثم قال: ضعني على الأرض، فوضعه فمشى إليه، فضربه فشَجَّه مُوضِحةً في رأسه، وسالت الدماء، فقال «نوح» عليه السلام: رب! قد ترى ما يفعل بي عبادك، فإن يك لك في عبادك حاجة فاهدهم، وإن يكن غير ذلك فصبِّرني إلى أن تحكم وأنت خير الحاكمين.

فأوحى الله تعالى إليه وآيسه من إيمان قومه وأخبره أنه لم يبق في أصلاب الرجال ولا في أرحام النساء مؤمن، وقال سبحانه: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ﴾ إلخ.. والمراد بمن آمن، قيل: من استمر على الإيمان وللدوام حكم الحدوث، ولذا لو حلف لا يلبس هذا الثوب وهو لابسه فلم ينزعه في الحال حنث.

---

(١) تفسير الآلوسي (١٢/ ٤٧، ٤٨).

وقيل: المراد إلَّا من قد استعد للإيمان، وتوقع منه، ولا يراد ظاهره، وإلا كان المعنى إلا من قد آمن فإنه يؤمن.

وأورد عليه أنه مع بعده يقتضي أن من القوم من آمن بعد ذلك، وهو ينافي تقنيطه من إيمانهم.

وقد يقال: المراد ما هو الظاهر، والاستثناء على حد الاستثناء في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء، الآية: ٢٣] على ما قاله غير واحد، فيفيد الكلام الإقناط على أتمِّ وجه وأبلغِه، أي: لن يحدث من قومك إيماناً وحصله بعد إلا من قد أحدثه وحصله قبل، وذلك مما لا يكن لما فيه من تحصيل الحاصل وإحْداث المحدث، فإحداث الإيمان وتحصيله بعد مما لا يكون أصلاً.

وفي الحواشي الشهابية لو قيل: إن الاستثناء منقطع وأن المعنى لا يؤمن أحد بعد ذلك غير هؤلاء لكان معنى بليغاً، فتدبَّر.

ثم طيب الله تعالى خاطر نبيه «نوح» عليه السلام بقوله: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [هُود، الآية: ٣٦] أي: لا تلتزم البؤس ولا تحزن بما كانوا يتعاطونه من التكذيب والاستهزاء والإيذاء في هذه المدة الطويلة، فقد حان وقت الانتقام منهم.

قال تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [هُود، الآية: ٣٧] المراد أن الله عزَّ من قائل سيوحي إليه بعلم من لدنه كيف يصنع السفينة، وقد أخرج إسحاق بن بشر، وابن عساكر، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه عليه السلام لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى الله تعالى إليه أن اجعل رأسها كرأس الديك، وجؤجؤها كجؤجؤ الطير، وذنبها كذنب الديك، واجعل لها أبواباً في جنبها، وشُدَّها بدُسُرٍ ـ أي مسامير، مفردها دِسَار ـ، وأمره أن يطليها بالقار، وهو الزفت، ولم يكن في الأرض قار، ففجّر الله تعالى له عين القار حيث ينحتها، يغلي غلياناً حتى طلاها الخبر، وفيه أن الله تعالى بعث «جبريل» عليه السلام فعلمه صنعتها، وقيل: كانت الملائكة عليهم السلام تعلمه. وأمره تعالى ألَّا يراجعه في الذين ظلموا ولا يدعوه بدفع العذاب عنهم لأن الحكم الإلٰهي قد

صدر بإغراقهم وجرى به قلم القضاء وجفَّ القلم فلا سبيل إلى كفه. وقيل: إن المراد «واعلة» زوجته، و«كنعان» ابنه، وليس بشيء[١].

وصدع «نوح» عليه السلام بأمر الله تعالى، وأقبل يصنع الفلك ـ السفينة ـ، وكانت على ما روي عن قتادة، وعكرمة، والكلبي من خشب الساج، وقد غرسه بنفسه ولم يقطعه حتى صار طوله أربعمائة ذراع ـ والذراع إلى المنكب ـ في أربعين سنة على ما روي عن سليمان الفراسي، وقيل: أبقاه عشرين سنة، وقيل: مكث مائة سنة يغرس ويقطع ويبس، وقال عمرو بن الحارث: لم يغرسه بل قطعه من جبل لبنان.

وعن ابن عباس أنها كانت من خشب الشمشاد، وقطعه من جبل لبنان، وقيل: إنه ورد في التوراة أنها كانت من الصنوبر، وروي أنه كان «سام» و«حام» و«يَافِث» ينحتون معه.

وفي رواية أنه ـ عليه السلام ـ كان معه أيضاً أناس استأجرهم ينحتون، وذكر أن طولها ثلاثمائة ذراع، وعرضها خمسون، وارتفاعها في السماء ثلاثون.

وأخرج ابن جرير، وغيره عن الحسن قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وصنع لها باباً في وسطها، وأتم صنعها على ما روي عن مجاهد في ثلاث سنين.

وعن كعب الأحبار: في أربعين سنة، وقيل: في ستين، وقيل: في مائة سنة، وقيل: في أربعمائة سنة.

واختلف في أنه في أي موضع صنعها، فقيل: في الكوفة، وقيل: في الهند، وقيل: في أرض الجزيرة، وقيل: في أرض الشام.

وسفينة الأخبار في تحقيق الحال فيما أرى لا تصلح للركوب فيها، إذ هي غير سالمة عن عيب، فالحري بحال من لا يميل إلى الفضول أن يؤمن بأنه عليه السلام صنع الفلك حسبما قص الله تعالى في كتابه، ولا يخوض في مقدار طولها

---

(١) انظر روح المعاني (١٢/٤٩، ٥٠).

وعرضها وارتفاعها، ومن أي خشب صنعها، وبكم مدة أتم عملها، إلى غير ذلك، مما لم يشرحه الكتاب، ولم تبينه السنة الصحيحة، هذا، وفي التعبير ـ بيصنع ـ على ما قيل: ملاءمة للاستمرار المفهوم من الجملة الواقعة حالاً من ضميره، أعني قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [هود، الآيتان: ٣٨،٣٩] ، أي استهزأوا به لعمله السفينة إما لأنهم ما كانوا يعرفونها، ولا كيفية استعمالها، فتعجبوا من ذلك وسخروا منه، ويشهد لعدم معرفتهم ما روي عن ابن عباس أنه عليه السلام حين قال الله تعالى له: (اصنع الفلك) قال: يا رب! وما الفلك؟ قال: بيت من خشب يجري على وجه الماء، قال: يا رب! وأين الماء؟ قال: إني على ما أشاء قدير.

وإما لأنه عليه السلام كان يصنعها في برية بعيدة عن الماء، وكانوا يتضاحكون، ويقولون: يا نوح! صرت نجاراً بعد ما كنت نبياً، وهذا مبني على أن السفينة كانت معروفة بينهم.

ويشهد له ما أخرجه ابن جرير، والحاكم وصححه ـ وضعفه الذهبي ـ عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**كان «نوح» قد مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم حتى كان آخر زمانه، غرس شجرة فعظمت وذهبت كل مذهب، ثم قطعها، ثم جعل يعملها سفينة، فيرونه ويسألونه فيقول: أعملها سفينة، فيسخرون منه ويقولون: تعمل سفينة في البر، وكيف تجري؟ فيقول: سوف تعلمون**»، الحديث.

والأكثرون ـ كما قال ابن عطية ـ على أنهم لم يكونوا رأوا سفينة قط، ولا كانت إذ ذاك، وقد ذكر في كتب الأوليات أن «نوحاً» عليه السلام أول من عمل السفينة، والحق أنه لا قطع بذلك.

ولما سخروا منه قال ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود، الآية: ٣٨] ، قيل: إنها منه ـ عليه السلام ـ لما كانت لجزائهم من جنس صنيعهم لم تقبح، وقال ابن جريج: المعنى: إن تسخروا منا في الدنيا فإنا نسخر منكم في الآخرة، وقيل: في الدنيا عند الغرق، وفي الآخرة عند الحرق.

قال الطبرسي: إن المراد من نسخر منكم على هذا نجازيكم على سخريتكم أو نشمت بكم عند غرقكم وحرقكم، وفيه خفاء.

وسوف تعلمون من الذي سينزل به الخزي، أي الفضيحة والذل والهلاك، ومن سيحل به العذاب الدائم أي عذاب النار.

وأزفت ساعة انتصار الله تعالى لنبيه «نوح» عليه السلام، وجاءه الأمر من رب العزة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ۝٤٠ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرِىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٤١﴾ [هود، الآيتان: ٤٠، ٤١].

قال «الألوسي» رحمه الله: والأمر إما واحد الأوامر أي: الأمر بركوب السفينة، أو بالفوران، أو للسحاب بالإرسال، أو للملائكة عليهم السلام بالتصرف فيما يراد، أو نحو ذلك، ثم أضاف: و(فار التنور) أي: نبع منه الماء وارتفع بشدة كما تفور القدر بغليانها، وفيه من الاستعارة ما لا يخفى، والمراد من التنور تنور الخبز عند الجمهور، وكان على ما روي عن الحسن،ومجاهد، تنوراً لحَوَّاء تخبز فيه، ثم صار لـ «نوح» عليه السلام، وكان من حجارة، وقيل: هو تنور في الكوفة، في موضع مسجدها عن يمين الداخل مما يلي باب كندة، وجاء ذلك في رواية عن «علي ـ كرم الله تعالى وجهه ـ ، وقيل: تنور بالهند، وقيل: بعين وردة من أرض الجزيرة العمرية، أو من أرض الشام، وقيل: ليس المراد به تنوراً معيناً بل الجنس، والمراد فار الماء من التنانير، وفي ذلك من عجيب القدرة، ما لا يخفى، ثم أضاف (قلنا احمل فيها من كلٍّ زوجين اثنين) أي: من كل نوع من الحيوانات ينتفع به الذين ينجون من الغرق وذراريهم بعد، ولم تكن العادة جارية بخلقه من غير ذكر وأنثى.

وذكر أنه عليه السلام جعل للسفينة ثلاثة بطون، وحمل في البطن الأسفل الوحوش والسباع والهوام، وفي البطن الأوسط الدواب والأنعام، وركب هو ومن معه في البطن الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد، وحمل معه جسد «آدم» عليه السلام وجعله معترضاً بين الرجال والنساء، وكان حمله بوصية منه عليه السلام توارثها ولده حتى وصلت إلى «نوح» عليه السلام.

ويعارض هذا التقسيم ما روي أن الطبقة السفلى للوحش، والوسطى للطعام، والعليا له عليه السلام ولمن آمن.

وتوسَّع بعضهم في العموم، فأدرج فيه ما ليس من جنس الحيوان، وأيد بما أخرجه إسحاق بن بشر، وغيره، عن «علي» ـ كرم الله تعالى وجهه ـ مرفوعاً أن «نوحاً» عليه السلام حمل معه في السفينة من جميع الشجر.

وبما أخرجه أبو الشيخ، عن جعفر بن محمد رضي الله عنهما قال: أمر «نوح» عليه السلام أن يحمل معه ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [هُود، الآية: ٤٠] فحمل من التمر العجوة واللون.

وأخرج النسائي، عن أنس بن مالك: أن «نوحاً» عليه السلام نازعه الشيطان في عود الكرم، فقال: هذا لي، وقال «نوح» عليه السلام: هو لي، فاصطلحا على أن لنوح ثلثها، وللشيطان ثلثيها، ولا يكاد يعوَّل على مثل هذه الأخبار عند التنصير.

ومما يحمل معه في السفينة ما أخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: تأذَّى أهل السفينة بالفأر، فعطس الأسد فخرج من منخريه سِنَّوْران، ذكر وأنثى، فأكلا الفأر إلا ما أراد الله أن يبقى منه، وتأذَّوْا بأذى أهل السفينة فعطس الفيل فخرج من منخريه خنزيران، ذكر وأنثى، فأكلا أذى أهل السفينة.

وفي رواية الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»، وابن جرير، وغيرهما عنه: أن «نوحاً» عليه السلام شكا إلى الله تعالى قرض الفأر حبال السفينة، فأوحى الله إليه فمسح جبهة للأسد فخرج سِنَّوزان، وشكا عَذِرَةَ في السفينة فأوحى إليه سبحانه! فمسح ذنب الفيل فخرج خنزيران فأكلا العَذِرَة.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق زيد بن أسلم، عن أبيه مرفوعاً: أن أهل السفينة شكوا الفأرة فقالوا: الفويسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا، فأوحى الله تعالى إلى الأسد فعطس، فخرجت الهرة منه فتخبأت الفأرة منها، ولم يذكر فيه بحث الخنزير، ويفهم منها على ما فيها، أن الهرة لم تكن عند الحمل، ومن الأولين أنها والخنزير لم يكونا، وفي بعض الآثار ما يخالفه.

فقد أخرج أحمد في «الزهد» وأبو الشيخ، عن وَهْب بن منبه، قال: لما أمر

الله تعالى «نوحاً» عليه السلام بالحمل، قال: كيف أصنع بالأسد، والبقرة؟ وكيف أصنع بالعناق والذئب؟ وكيف أصنع بالحمام والهر؟ فقال الله تعالى: من ألقى بينهما العداوة؟ قال: أنت يا رب! قال: فإني أؤلف بينهم حتى لا يتضارون، ولا يخفى ما بين هذا وبين التقسيم الأول أيضاً.

وجاء في شأن الأسد روايات مختلفة، أظهرها أن الله تعالى سلط عليه الحمى، وكانت أول حمى نزلت الأرض.

ثم أضاف: والذي يميل القلب إليه أن الطوفان لم يكن عامًّا، ـ كما قال به البعض ـ وأنه عليه السلام لم يؤمر بحمل ما جرت العادة بتكونه من عفونة الأرض كالفأر والحشرات، بل أمر بحمل ما يحتاج إليه إذا نجا ومن معه من الغرق لئلا يغتموا لفقد[٥] ويتكلفوا مشقة جلبه من الأصقاع النائية التي لم يصلها الغرق، فكأنه قيل: قلنا احمل فيها من كل ما تحتاجونه إذا نجوتم زوجين اثنين.

وإن قلنا بعموم الغرق نقول أيضاً: إنه عليه السلام لم يكلف بحمل شيء من المتكونات من العفونة، بل كلف بالحمل مما يتناسل من الحيوانات لمصلحة بقاء النوع، وكانت السفينة تسع ذلك عادة أو معجزة، وقدرة الله تعالى أجل من أن تضيق عن ذلك، ثم قال:

و(أهلك) والمراد بأهله على ما في بعض الآثار امرأته المسلمة وبنوه منها، وهم «سام» عليه السلام وهو أبو العرب، و«حام» وهو أبو السودان، قيل: إنه أصاب زوجته في السفينة. فدعا «نوح» عليه السلام أن تُغَيَّر نطفته فَغُيِّرت، و«يافِث» كصاحب وهو أبو الترك، ويأجوج ومأجوج، وزوجة كل منهم. ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [هُود، الآية: ٤٠] بأنه من المغرقين لظلمهم، وذلك في قوله سبحانه ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ [هُود، الآية: ٣٧] الآية، والمراد زوجة له أخرى تسمى «واعلة»، بالعين المهملة، وفي رواية «والعة» وابنه منها «كنعان»، وكان اسمه فيما قيل: «يام»، وهذا لقبه عند أهل الكتاب، وكانا كافرين.

وفي هذا دلالة على أن الأنبياء عليهم السلام يحلُّ لهم نكاح الكافرة بخلاف نبينا صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ﴾ [الأحزاب، الآية: ٥٠] ، ﴿وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هُود، الآية: ٤٠] ، قيل: كانوا سبعة: زوجته، وأبناؤه

الثلاثة، وكنائنه الثلاث، وروي هذا عن قتادة، والحكم بن عقبة، وابن جريج، ومحمد بن كعب، ويرده عطف ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ [هُود، الآية: ٤٠] على الأهل إلَّا أن يكون الأهل بمعنى الزوجة، فإنه قد ثبت بهذا المعنى، لكن قيل: إنه خلاف الظاهر، والاستثناء عليه منقطع أيضاً، وعن ابن إسحاق أنهم كانوا عشرة، خمسة رجال وخمس نسوة، وعنه أنهم كانوا مع «نوح» عليه السلام عشرين، نصفهم رجال، ونصفهم الآخر نساؤهم، وقيل: كانوا ثمانية وسبعين، نصفهم ذكور ونصفهم إناث، وقيل: كانوا ثمانين رجلاً وثمانين امرأة، وقيل: والرواية الصحيحة أنهم كانوا تسعة وسبعين، زوجته، وبنوه الثلاثة، ونساؤهم، واثنان وسبعون رجلاً، وامرأة من غيرهم من بني «شيت»، واعتبار المعية في الإيمان للإيماء إلى المعية في قصر الإيمان والنجاة[1].

وقال «نوح» عليه السلام لمن معه من المؤمنين ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هُود، الآية: ٤١]، أي وقت إجرائها وإرسائها. ويروى عن الضحاك، أنه أي: «نوح» عليه السلام كان إذا أراد أن يجريها، يقول: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ فتجري، وإذا أراد أن يرسيها قال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ فترسو.

وانطلقت السفينة ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [هُود، الآية: ٤٢]، كان النداء قبل أن تنقطع العلاقة بين السفينة والبر، إذ حينئذٍ يمكن جريان ما جرى بين «نوح» عليه السلام وبين ابنه من المفاوضة والاستدعاء إلى السفينة، والجواب بالاعتصام بالجبل.

وقال بعض المحققين: إن هذا النداء إنما كان قبل الركوب في السفينة، والواو لا تدل على الترتيب، وعن «علي» ـ كرم الله تعالى وجهه ـ أنه قرأ (ابنها) على أن ضمير التأنيث لامرأته، وفي إضافته إليها إشعار بأنه ربيبه، لأن الإضافة إلى اللام مع ذكر الأب خلاف الظاهر، وإن جوَّزوه، ووجه بأنه نسب إليها لكونه كافراً مثلها، وكان في مكانٍ عزل فيه نفسه عن أبيه وإخوته ومن آمن من قومه،

(١) انظر روح المعاني (١٢/ ٥٠ ـ ٥٥) مع بعض التصرف.

والمراد بعده عنهم إمَّا حِسًّا أو معنى، وحاصله المخالفة لهم في الدين.

وقيل: المراد كان في معزل عن الكفار قد انفرد عنهم، وظن «نوح» عليه السلام أنه يريد مفارقتهم، ولذلك دعاه إلى السفينة.

وقيل: إنما ناداه لأنه كان ينافقه فظَنَّ أنه مؤمن، واختاره كثير من المحققين كالماتريدي، وغيره.

وقيل: كان يعلم أنه كافر إلى ذلك الوقت، لكنه عليه السلام ظن أنه عند مشاهدة تلك الأهوال، وبلوغ السيل الربى ينزجر عما كان عليه ويقبل الإيمان، وقيل: لم يجزم بدخوله في الاستثناء لما أنه كان كالمجمل، فحملته شفقة الأبوة على أن ناداه: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [هُود، الآية: ٤٢] وهو نهي عن مشايعة الكفرة، والدخول في غمارهم.

﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۖ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هُود، الآية: ٤٣]، لقد ظن أن الماء كسائر المياه المعتادة في أزمنة السيول، وأن بمستطاعه أن يتقيها فلا تصل إليه إذا ما ارتقى أحد المرتفعات، جهلاً منه بأن ذلك إنما كان لإهلاك الكفرة، فلا بد أن يدركهم ولو كانوا في قُلَل الجبال ـ رُؤوسِها ـ، لكنَّ «نوحاً» بيَّن له أنه لا عاصم اليوم من أمر الله الذي لا بد من نفاذه، وليس اليوم كسائر الأيام التي تقع فيها الوقائع، وتُلِمُّ فيها المُلِمَّات المعتادة التي ربما يُتَخَلَّصُ منها بالالتجاء إلى بعض الأسباب العادية، وقوله ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾ [هُود، الآية: ٤٣] تفخيم لشأنه الجليل جلَّ شأنه، وإشعار بعلية رحمته بموجب سبقها غضبه، كل ذلك لكمال عنايته عليه السلام بتحقيق ما يتوخاه من نجاة ابنه. ولكن (حال بينهما الموج) فقطع ما بين «نوح» عليه السلام وابنه من المجاوبة، وقيل: كانا يتراجعان الكلام، فما استتمت المراجعة حتى جاءت موجة عظيمة، وكان راكباً على فرس قد بَطَر وأعجب بنفسه، فالتقمته وفرسه، فكان من المغرقين.

وانقطع أمل «نوح» عليه السلام بنجاة ولده بعد أن غيبته الأمواج العاتية عن عينيه وابتلعته في أجوافها.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ [هود، الآية: ٤٤] .

لقد أمر الله تعالى الأرض، ولا آمر في هذا الكون إلا هو، أن تبتلع ما على وجهها من ماء الطوفان، وأمر السماء أن تمسك ماءها وتحبس مطرها، فانحسر الماء، وأنجز الله وعده بإهلاك الكافرين، ورست السفينة على «الجودي»، وهو جبل بالموصل، أو بالشام، أو بآمُل.

وأخرج ابن جرير، عن عبد العزيز بن عبد الغفور، عن أبيه مرفوعاً: أنه عليه السلام ركب في أول يوم من رجب، فصام هو ومن معه، وجرت بهم السفينة ستة أشهر فانتهى ذلك إلى المحرم، فأرست السفينة على «الجودي» يوم عاشوراء، فصام «نوح» عليه السلام وأمر جميع من معه من الوحش والدواب، فصاموا شكراً لله.

وفي بعض الآثار أنها طافت بهم الأرض كلها، ولم تدخل الحرم لكنها طافت به أسبوعاً، وأن الحجر الأسود خُبِّىء في جبل «أبي قبيس»، وأن البيت رفع إلى السماء.

وفي رواية ابن عساكر، عن مجاهد أنه لم يدخل الحرم من الماء شيء، والظاهر على هذا أنه لا خَبْءَ كما أنه لا رفع، وعندي أن رواية ثبوتهما جميعاً مما لا تكاد تصح، وبفرض صحتها لا يظهر لي سر رفع البيت بلا حجر، وخبء الحجر بلا بيت، بل عندي في رفع البيت مطلقاً تردد، وإن كنت ممن لا يتردد في أن الله تعالى على كل شيء قدير[1].

وأضاف «الآلوسي» رحمه الله يقول: واعلم أن هذه الآية الكريمة (٤٤) قد بلغت من مراتب الإعجاز أقاصيها، واستذلَّت مصاقع العرب ـ أي بلغاءهم ومُفَوَّهيهم ـ فسعفت بنواصيها، وجمعت من المحاسن ما يضيق عنه نطاق البيان، وكانت من سمهري البلاغة مكان السِّنان.

يروى أن كفار قريش، قصدوا أن يعارضوا القرآن، فعكفوا على لباب البُرِّ، ولحوم الضأن، وسُلاف الخمر، أربعين يوماً، لتصفو أذهانهم، فلما أخذوا فيما

(١) انظر روح المعاني (١٢/ ٦١، ٦٢).

قصدوه، وسمعوا هذه الآية، قال بعضهم لبعض: هذا الكلام لا يشبه كلام المخلوقين، فتركوا ما أخذوا فيه وتفرَّقوا.

ويروى أيضاً أن «ابن المقفع» ـ وكان كما في القاموس فصيحاً بليغاً، بل قيل: إنه أفصح أهل وقته ـ رام أن يعارض القرآن، فنظم كلاماً، وجعله مفصَّلاً، وسماه سوراً، فاجتاز يوماً بصبي يقرؤها ـ أي الآية (٤٤) في مكتب، فرجع ومحا ما عمل، وقال: أشهد أن هذا لا يُعَارَض أبداً، وما هو من كلام البشر، ولا يخفى أن هذا لا يستدعي ألَّا يكون سائر آيات القرآن العظيم معجزاً، لما أن حد الإعجاز هو المرتبة التي يعجز البشر عن الإتيان بمثلها، ولا تدخل على قدرته قطعاً، وهي تشتمل على شيئين: الأول: الطرف الأعلى من البلاغة، أعني ما تنتهي إليه البلاغة، ولا يتصور تجاوزها إياه، والثاني: ما يضرب من ذلك الطرف، أعني المراتب العلية التي تتقاصر القوى البشرية عنها أيضاً، ومعنى إعجاز آيات الكتاب المجيد بأسرها هو كونها مما تتقاصر القوى البشرية عن الإتيان بمثلها سواء كانت من القسم الأول أو الثاني، فلا يضر تفاوتها في البلاغة، وهو الذي قاله علماء هذا الشأن.

وقد ذكر ابن أبي الإصبع أن فيها ـ أي الآية (٤٤) عشرين ضرباً من البديع، مع أنها سبع عشرة لفظة، وذلك المناسبة التامة في (ابلعي) و(أقلعي) والاستعارة فيهما والطباق بين «الأرض» و«السماء»، والمجاز في (يا سماء) فإن الحقيقة يا مطر السماء! والإشارة في (وغيض الماء) فإنه عبر به عن معانٍ كثيرة لأن الماء لا يغيض حتى يقلع مطر السماء، وتبلع الأرض ما يخرج منها، فينقص ما على وجه الأرض، والإرداف في (واستوت)، والتمثيل في (وقضي الأمر) والتعليل فإن غيض الماء علة للاستواء وصحة التقسيم، فإنه اسْتَوعَبَ أقسام الماء حال نقصه، والاحتراس في الدعاء لئلا يتوهم أن الغرق لعمومه شمِل من لا يستحق الهلاك، فإن عدله تعالى يمنع أن يدعو على غير مستحق، وحسن النسق وائتلاف اللفظ مع المعنى والإيجاز، فإنه سبحانه قص القصة مستوعبة بأخصر عبارة، والتسهيم لأن أول الآية يدل على آخرها، والتهذيب لأن مفرداتها موصوفة بصفات الحسن، وحسن البيان من جهة أن السامع لا يتوقف في فهم معنى الكلام، ولا يشكل عليه شيء منه، والتمكين لأن الفاصلة مستقرة في محلها

مطمئنة في مكانها، والانسجام.

وزاد الجلال السيوطي بعد أن نقل هذا عن ابن أبي الإصبع، الاعتراض. وزاد آخرون أشياء كثيرة إلَّا أنها ككلام ابن أبي الإصبع قد أشير إليها بإصبع الاعتراض[1]. ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [هُود، الآية: ٤٥] إن حنان الأبوة كان الباعث على هذا النداء والدافع إليه، إنه نداء يقطر منه الاستعطاف، وجميل التوسل إلى من عهده منعماً مفضلاً في شأنه أولاً وآخراً.

ولكن العليم العَلَّام يرشد نبيه «نوحاً» عليه السلام إلى حقيقة لا مرية فيها ولا ارتياب، كانت قد غابت عن ذهنه، ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هُود، الآية: ٤٦]، لقد بيَّن الله تعالى أن الولد الغريق ليس من أهل «نوح» عليه السلام أصلاً، ذلك لأن مدار الأهلية هو القرابة الدينية، وهي الأساس وعليها المُعَوَّل، وقد انقطعت تلك القرابة بالكفر، فلا علاقة بين مسلم وكافر، ولذا لم يتوارثا، وقد ذكروا أن قرابة الدين أقرب من قرابة النسب، كما أشار إلى ذلك «أبو فراس» بقوله:

كانت مودة سلمان له نسباً ولم يكن بين نوح وابنه رحم

أو ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ﴾ [هُود، الآية: ٤٦] الذين أمرتك بحملهم في الفلك لخروجه عنهم بالاستثناء، وحكي هذا عن ابن جرير، وعكرمة، والأول عن ابن عباس رضي الله عنهما، وعلى القولين ليس هو من الذين وعد بإنجائهم، وكأنه لما كان دعاؤه عليه السلام بتذكير وعده جَلَّ ذكره مبنياً على كون «كنعان» من أهله، نفى أولاً كونه منهم، ثم علَّل عدم كونه منهم على طريقة الاستئناف التحقيقي بقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ﴾ [هُود، الآية: ٤٦]، وأصله ذو عمل فاسد. وقال «الآلوسي» في تفسيره لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هُود، الآية: ٤٧]، جاء عن «الفضيل بن عياض» أنه قال: بلغني أن «نوحاً» عليه السلام بكى عن قول الله تعالى له ما قال أربعين يوماً.

---

(١) انظر روح المعاني (١٢/٦٧، ٦٨).

وأخرج «أحمد» في «الزهد» عن وهيب بن الورد الحضرمي، قال: لما عاتب الله تعالى «نوحاً» في ابنه، وأنزل عليه ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ﴾ [هُود، الآية: ٤٦] بكى ثلاثمائة عام حتى صار تحت عينيه مثل الجدول من البكاء.

وزعم الواحدي أن السؤال قبل الغرق، ومع العلم بكفره، وذلك أن «نوحاً» عليه السلام لم يعلم أن سؤاله ربه نجاة ولده محظور عليه مع إصراره على الكفر حتى أعلمه الله تعالى ذلك، واعترض بأنه إذا كان عالماً بكفره مع التصريح بأن في أهله من يستحق العذاب كان طلب النجاة منكراً من المناكير، فتدبَّرْ، والظاهر على ما قررنا أن قوله: ﴿رَبِّ﴾ [هود، الآية: ٤٧] إلخ.. توبة مما وقع فيه عليه السلام وما هنا أيضاً عبارة إما عن المسؤول أو عن السؤال، أي: أعوذ بك أن أطلب منك من بعدُ مطلوباً لا أعلم أن حصوله مقتضى الحكمة، أو طلباً لا أعلم أنه صواب سواء كان معلوم الفساد أو مشتبه الحال، أو لا أعلم أنه صواب أو غير صواب، ولم يقل أعوذ بك منه أو من ذلك مبالغة في التوبة، وإظهاراً للرغبة والنشاط فيها، وتبركاً بذكر ما لقنه الله تعالى، وهو أبلغ من أن يقول: أتوب إليك أن أسألك لما فيه من الدلالة على كون ذلك أمراً هائلاً محذوراً لا محيص منه إلَّا بالعوذ بالله تعالى، وأن قدرته عليه السلام قاصرة عن النجاة من المكاره إلَّا بذلك كما في إرشاد العقل السليم، واحتمال أن يكون فيه رد وإنكار نظير ما في «البقرة» من قول «موسى» عليه السلام ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البَقَرَة، الآية: ٦٧]، مما لا يكاد يمر بفكر أحد من الجاهلين.

وقَبِلَ الله تعالى توبة نبيه «نوح» عليه السلام بقوله جَلَّ شأنه: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۛ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هُود، الآيتان: ٤٨، ٤٩] ونزل «نوح» عليه السلام بأرض الموصل وبنى قرب الجبل قرية يقال لها: قرية الثمانين عدد من في السفينة، وفي رواية عن ابن عباس: أنه بنى كل منهم بيتاً، فسميت سوق الثمانين[1].

أما عن خيانة امرأة «نوح» عليه السلام فقد ذكرها الله عَزَّ من قائل في سورة

(١) انظر روح المعاني (١٢/٦٨ ـ ٧٣).

التحريم: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم، الآية: ١٠]، كان اسم امرأة «نوح» عليه السلام «والعة» وقيل: «والهة» وقد فسر العلامة «الآلوسي» خيانتها لنوح زوجها بقولها للناس عنه: إنه مجنون، كما روي عن الضحاك، أنه قال: النميمة، وإذا أوحى الله تعالى إليه بشيء أفشته للمشركين، وعن ابن جريج: الكفر والمخالفة، وقال الراغب: الخيانة والنفاق واحد، إلَّا أن الخيانة تقال اعتباراً بالعهد والأمانة، والنفاق يقال اعتباراً بالدين، ثم يتداخلان، فالخيانة مخالفة الحق بنقض العهد في السر ونقيضها الأمانة، وحمل ما في الآية على هذا، ولا تفسر هنا بالفجور، لما أخرج غير واحد عن ابن عباس: «**ما زنت امرأة نبي قط**» ورفعه أشرس إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وفي «الكشاف» لا يجوز أن يراد بها الفجور لأنه سمجٌ في الطبع نقيصة عند كل أحد بخلاف الكفر فإن الكفر لا يستسمجونه ويسمونه حقاً[1]، ولم يفد امرأة «نوح» عليه السلام صلاح زوجها وعظيم مكانته، فذهبت إلى الجحيم، وأما زوجها فذهب إلى دار النعيم.

(١) انظر روح المعاني (٢٨/ ١٦٢).